مدخل إلى دراسة ابن المقفع

امتدت الدولة الإسلامية في أواخر العهد الأموي وأول العصر العباسي إلى أصقاع كثيرة من حدود الصين والهند شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن المحيط الهندي والسودان جنوباً إلى بلاد الروم شمالاً.

فالدولة الإسلامية العتيدة ضمنت إليها آنذاك بما يعرف اليوم إيران وخرسان وباكستان وأفغانستان وأوزبكستان وطاجكستان وكازخستان...

وقد اختلط في هذه الدولة أجناس عرقية متعددة، ولغات وثقافات متنوعة ومتفاوتة غالباً، ولكن الرابطة الإسلامية السامية استطاعت أن تعمق أواصر شعوبها؛ مصداقاً لقوله تعالى:(يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا أن أكرمكم عند الله أتقاكم)الحجرات13/49 فصهرت تعاليم الإسلام أبناء الأمة الجديدة، وشكلت بينهم التقاءً روحياً وفكرياً ومادياً لا نظير له في تاريخ البشرية، ارتقى في مزج حضاري فريد في العصر العباسي، وهو مزج استند إلى امتلاك القلوب والأفئدة رغبة لا رهبة، ولم يقم على سيطرة جنس على آخر بالقوة؛ وعقل على عقل بالقهر والظلم.

وسعى أبناء البلاد المفتوحة تحت راية الإسلام ورحابة تعاليمه السمحة إلى تعلم لغة القرآن بشغف وحب؛ فهي لغة العبادة والعلم والأدب والمعرفة، ولغة القوم

obeikandl.com

الذين أحبوهم؛ لأنهم حملوا إليهم الدين الحنيف، وإن حافظ كثير من أبناء البلاد على لغته الأصلية التي لم تمس من قبل أحد، لذلك كله أتقن أبناء الأمة الإسلامية اللغة العربية، وطفق غير واحدٍ من النابهين يتوق إلى تأليف كتبه بها، فكان له ذلك، فنقل بوساطتها معارفه؛ وترجم ما يراه من مصنفات معرفية في لغته الأم إلى العربية.

ونعتقد بأن أبناء إيران قد تفردوا من غيرهم؛ فقد عشقوا العربية وجعلوها لغتهم الأم، في البحث والكتابة والتأليف، ونسيت أو كادت اللغة الفارسية، عدا من تمسك بها هنا أو هناك لأمر ما، فقد أقبلوا - ولا زالوا حتى اليوم - على لغة القرآن إقبالاً يعجز القلم عن وصفه، فشقوا طريقهم إلى قوانينها وخصائصها وأتقنوها بقوة واقتدار، وصارت مناط رجائهم في التعبير عن مشاعرهم وأفكارهم وحاجاتهم، كما غدت لغة العلم والمعرفة والتأليف عندهم، ولما كان امتزاجهم بالإسلام والعربية امتزاجاً حضارياً حيوياً فاعلاً فقد تبوؤا سدة مرموقة في ضروب كثيرة من المعارف. ويكفيهم فخراً وإيانا أن يكون منهم الإمام الفقيه المجتهد في الفقه (أبو حنيفة النعمان بن ثابت:80 - 150هـ) وإمام النحو واللغة (سيبويه:180هـ) والمجدد في أساليب الشعر (بشار بن برد:168هـ) والكاتب الأديب الذي نسب إليه أنه كان أول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق[1](عبد الله بن المقفع:142.106هـ). ولا نكاد نرى العصر العباسي يتقدم حتى نجد علماء وأدباء آخرين عظاماً لا يشق لهم

(1)- انظر مثلاً: مروج الذهب314/4 والفهرست 337 و341 ومقدمة ابن خلدون 480 و486 و532 وأمراء البيان 87-88 والأعلام 140/4 وابن المقفع 100 والفن ومذاهبه في النثر العربي 140 والعصر العباسي الأول 522 وانظر ضحى الإسلام ففيه آراء كثيرة في ذلك 191/1 و176/2.

غبار في مجالات شتى[2] كانوا رواداً في عملية المزج الحضاري بين الشعوب، بفعل الرابطة الإسلامية التي نمت وتطورت في النفوس؛ وهي التي جعلت - مثلاً - ابن خلدون يقول: (حملة العلم في الملة الإسلامية أكثرهم العجم؛ لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية؛ إلا في القليل النادر، وإن كان منهم العربي في نسبته فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيخته) ثم يبين سبب ذلك[3].

فابن خلدون استعمل (لا من) استعماله لتركيب (سواء في ذلك) وبمعناه. وهو في هذا القول قد بالغ في شأن العجم على حساب مكانة العربي، ولكنه معذور في ذلك؛ لما رآه من سيطرتهم في بداية العصر العباسي؛ علماً أنه (ما خلق الله العقل إلا ليشهد بالحق للمحق، والباطل للباطل)[4].

ولهذا نقول: إذا كانت الأمم كلها قد (تقاسمت الفضائل والنقائص باضطرار الفطرة واختيار الفكرة)[5] فإن أبناء فارس خاصة تمرسوا منذ القديم بالسياسة والحدود والرسوم والحساب والحكم، ومرنوا في صنعة الكتابة والتأليف.

ولما اعتنق أكثرهم دين الإسلام (وتعلموا العربية كان تأليفهم بالعربية سهلاً ويسيراً؛ وأن اختلف الموضوع واللغة)[6]. ولا شيء أدل على هذا كله من أنهم كانوا في كل ديوان من دواوين الدولة منذ بداية العهد الأموي على الأقل، ومن ثم علا شأن بعضهم علواً كبيراً في أواخره كعبد الحميد الكاتب،

(2)- انظر مثلاً: تاريخ الادب في إيران 15-16و94 و 102-104 ومقدمة ابن خلدون 544-545.
3) مقدمة ابن خلدون 543 وانظر فيه 444 و بعد 466 و481.
4)الامتاع والمؤانسة 94/1 وانظر الفن ومذاهبه في النثر العربي 122 – 123 .
5)الإمتاع والمؤانسة 74/1 وانظر فجر الإسلام 84 – 96.
6)ضحى الإسلام 191/1 وانظر مقدمة ابن خلدون 479 – 480 – 481.

obeikandl.com

واحتلوا مناصب رفيعة في العصر العباسي، لبراعتهم في صناعة الكتابة والتأليف؛ فضلاً عن الحساب وإتقانه، وإدارة بعض شؤون الخلافة الهامة.

فلم تعد العلاقة بين العرب والفرس علاقة تأثر وتأثير أو غالب ومغلوب كما كانت عليه في العصر الجاهلي، ولا هي علاقة ظاهرية تتم على الأتباع والتقليد في الأدب أو اللغة أو الفن أو شؤون الحياة في العمارة و الملبس و المشرب.. وإنما غدت العلاقة بينهما حركة علمية ثقافية دينية ينصهر في أنشطتها أبناؤها ويتنافسون في تقديم أحسن ما يملكون، ويشهد بهذا حركة الترجمة النشطة في عهد المنصور.

فقد تطورت الحياة الفكرية والاجتماعية والأدبية والسياسة والفنية تطوراً ملحوظاً في فجر دولة بني العباس مما وفر المناخ الإبداعي المناسب لأبناء الأمة مهما كانت أجناسهم وألوانهم...

وهذا لا يعني أن ننزع عن بعض الأفراد فيها نزعة الشعوبية أو التطهر من أدران العصبية؛ والتلوث بأشكال الجهل القديم من التدين، ولا نستثني عرقاً دون عرق، فقد وجد من أبناء فارس من هو مثل معمر بن المثنى (ت 210 هـ) يؤلف في (مثالب العرب)، ووجد مقابله عشرات غيره لفظوا العصبية وتمسكوا بالهوية العربية الإسلامية كابن قتيبة (ت 276) المؤرخ الأديب اللغوي الفقيه...وهناك آخرون غيره ممن أشرنا إليهم أو لم نشر.

وكذلك وجد من العرب من تعصب لجنسه؛ ورأى الفضائل كلها فيهم؛ بينما

طفق يطعن في الفرس أيما مطعن، ولاسيما بعد القرن الثاني الهجري[7].

ومن هنا يمكن أن نتبين أن أبا جعفر المنصور خاصة لم يتعصب لفكرة دون أخرى إذا كانت بعيدة عن مركز الخلافة، والدليل على هذا أن الالتقاء في الفكر والأدب واللغة غداً بين أبناء الأمة الإسلامية ارتقاءً حضارياً نبيلاً وفاعلاً إنه ارتقاء جعل موسى ابن سيار الأسواري الفارسي الأصل (ت 150هـ/767م) أحد أعاجيب الدنيا؛ (فكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية. وكان يجلس في مجلسه المشهور به؛ فتقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره؛ فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها بالعربية، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية؛ فلا يدري بأي اللسانين هو أبين)[8]. وكذلك وجد في بداية العصر العباسي من عرف اللغة الفارسية كاللغوي الأصمعي (122 - 216هـ 740 - 831م)[9]؛ ولعل العتابي الشاعر المشهور وهو من تغلب واسمه كلثوم بن عمرو بن أيوب (ت 220هـ) قد أخذ حظاً كبيراً من الثقافة الفارسية، وأتقن لغتها كأهلها؛ فصار غزير المعاني، متعدد الفنون في الشعر والنثر، وله حكم تشبه حكم ابن المقفع[10].فكثير من العرب أخذوا حظاً من الثقافة الفارسية؛ هذه الثقافة التي طبعت عهد بني العباس بطابعها؛ ومن ثم تغلغلت كثير من العادات الفارسية في حياة الناس والحكام ولاة وخلفاء وأمراء وكتاباً...

(7) انظر الامتناع والمؤانسة 78/1 وبعد و90 وبعد، وضحى الإسلام 40/1- 34.
(8) البين والتبيين 1/ 268 وانظر الأعلام 7/ 323 والفن ومذاهبه في النثر العربي 126 – 127.
(9) انظر الأغاني 5 /7 والأعلام 4 / 162.
(10) انظر الفهرست لابن النديم 175 والأغاني 13/ 109 وضحى الإسلام 1/ 180- 181 وتاريخ الأدب العربي (فروخ) 2/ 218- 219.

obeikandl.com

ونرى أن المزاج الحضاري بين أبناء الدولة العربية الإسلامية كان حقيقة ماثلة في الحياة والثقافة والأدب شعره ونثره؛ إذ صارت الهوية الإسلامية الهوية الواحدة التي صهرت أبناء الشعوب الإسلامية ببوتقتها. فانفتح بعضهم على بعض؛ من دون حرج أو تشدد؛ حتى اتخذ الناس يوم النيروز عيداً كالفرس يتبادلون الهدايا ويتزاورون فيه[11].

وإذا كانت المساجد – من قبل – بيوتاً للعبادة، وحلقات للوعظ والدرس والمعارف فإن مجالس الخلفاء والأمراء والولاة والقادة كانت هي الأخرى فضاءات كبرى للمعرفة؛ فضلاً عن أن الأسواق (كالمربد) أسواق علم وأدب وفن... وكان أركان الدولة جميعاً يشجعون العلم والعلماء، ويقدمون الحوافز المالية والمعنوية لكل مبدع في مجال المعرفة والفكر والدين... ويعد أبو جعفر المنصور(عبدالله بن محمد بن علي ثاني الخلفاء العباسيين: 95 -158 هـ) هو أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأعجمية إلى العربية؛ منها كتاب (كليلة ودمنة)[12] وكان يحيط علماء الكلام بالرعاية...

فالدين الإسلامي كفل حرية الاعتقاد والتفكير والمناقشة من دون قهر؛ ثم جاء أبو جعفر المنصور، وأتاح شيئاً من الحرية بين الاتجاهات الفكرية لأمر سياسي غالباً، وكأنها غدت مذاهب سياسية ودينية ÷واشتد الأخذ والرد بين أهل الحديث وأهل الرأي اشتداده بين علماء النقل وعلماء العقل [13]

(11) انظر المحاسن والأضداد 207 – 208 وفجر الإسلام 84 وبعد و98 و بعد.
(12) مروج الذهب 4 /314 وانظر التنبيه والإشراف 295 ونصيحة الملوك 136 وتاريخ آدب اللغة العربية 1/ 438 – 439 ودراسات في الأدب المقارن 174 و 186 وابن المقفع 100 وبعد، والأعلام 3 /117 وراجع حاشية(1) مما تقدم، وأمراء البيان 89 و93.
(13) أمراء البيان 85 وانظر حاشية (44 – 50) من الفصل الثالث.

openkandil.com

ومن ثم وصلت الحرية العقلية إلى أبعد غاية ((بحيث كان كل رأي يعرض للمناقشة العقلية الخالصة حتى آراء الزنادقة))[14].

وابن المقفع عاش في مثل هذا الجو من الحرية الفكرية؛ ولكنه في الوقت نفسه ممتلئ بالأحداث السياسية الكبرى، وبالمؤامرات والدسائس والغدر والقتل... ورأى أن ولايات الدولة تعج بمفاسد كثيرة ومتنوعة، أدواتها الولاة قبل غيرهم، في وسط هذا المناخ كان يتنفس رؤيته إلى الإصلاح، ولم يكن قد استحق قانون القتل على الرأي والتمسك به ما دام بعيداً عن مركز الخلافة، ولعل السياسة الأموية كانت مشهورة في إلهاء الناس بشؤونهم الفكرية والأدبية الخاصة، أما القتل على الرأي المخالف -ولو كان بعيداً عن الخلافة - فقد تبناه المعتزلة في عهد المأمون؛ على الرغم من دعوتهم الظاهرية إلى حرية الرأي وصيانة حرية الاعتقاد، واحترام العقل.

فابن المقفع الذي ورث المانوية من أسرته وبيئته في أول نشأته كان طموحاً إلى إثبات وجوده في صناعة الكتابة التي علمه إياها أبوه؛ وهو يملك الذكاء ورهافة الحس، لهذا شمر عن يد الجد وسعى إلى ترجمة بعض الآثار الفارسية القديمة، أراد أن يستثمر شبابه وعقله ومناخ الحرية الفكرية الذي يشاهده في الحياة العملية على نحو ما، وكان ما يزال آنذاك على مانويته و فارسيته.

وحيت كانت الدولة العباسية توطد أركانها كان ابن المقفع يخطو أولى خطواته في سلم المجد والشهرة، فقد أدرك في هذا الوقت المبكر أن الاتصال

(14) العصر العباسي الأول 106؛ وانظر الحيوان 1/ 76 وانظر فيه 2/ 134- 135 و 143 ففيه كلام مطول عن بعض المتكلمين في مناظرة حول الكلب؛ وانظر الفن ومذاهبه في النثر 127- 128؛ وانظر حاشية 44 – 50 و82 من الفصل الثالث.

obeikandi.com

الحضاري بين أبناء الدولة الجديدة لا يتم بالكلام، وإنما يتجسد بالفعل الحضاري الملموس، فكرياً وأدبياً واجتماعياً... لهذا أيقن أن هدفه يمكن أن يتحقق بترجمة عدد من الآثار القديمة؛ مما يراه صالحاً لكي يكون مادة فكرية بلغة عربية بديعة؛ وينثرها بين أيدي الناس.

فابن المقفع الذي نشأ مولىً في آل الأهتم من بني تميم قد استوعب حركة التاريخ في تبدل معطياتها بين بني أمية وبين بني العباس، وعرف قيمة الحرية، وأدرك ماذا تعني كلمة الكتابة، وقدر للعقل مكانته فارتقى بفعل الإبداع الفردي الذي وضعه بين يدي الأمة، ولعل الإبداع الفردي إذا ترافق مع فعل آخر سيرقى بالفعل الحضاري للأمة وللفرد معاً.

ولهذا ظل لابن المقفع ألقه الفريد في بداية ازدهار الدولة العباسية، إذ سعى بكل قدراته العقلية والثقافية إلى ترجمة ما يراه مفيداً للأمة، فاستحق بكل جدارة أن يكون زعيم المترجمين عن الفارسية بل كان أول من ترجم في الملة الإسلامية من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية، ورأس عشرة من المترجمين الأدباء، ولو اعترض عليه بعض الكتب[15].

ومن هنا كان مدار تناقض كبير بين الباحثين، منهم من جعله زنديقاً ملحداً ومتعصباً لفارسيته؛ لأنه ما أراد من هذه التراجم إلا التفاخر بفارسيته ومذهبه المانوي؛ ولم يكن إسلامه إلا نفاقاً للوصول للسلطان ولبث آرائه، ومنهم من رأى فيه الرجل العاقل المحب للإصلاح الاجتماعي والسياسي؛ لهذا ترجم هذه

(15) انظر الفهرست 171- 172 و 182 ومن حديث الشعر والنثر 28 و 33 و 46 والعصر العباسي الأول 522 وانظر الحيوان 6/ 230 ومعجم الأدباء 15/ 242 (ترجمة عمارة بن حمزة).

obeikandi.com

الآثار لتكون مادة للعبرة والموعظة بين يدي الحكام، وهو الذي اتصف بأخلاق كريمة قربته من درجة المصلحين؛ فقد تمسك بالفضيلة ونشدها، ومن ثم سما بخلقه ونفسه درجات إلى الكمال حين أسلم.

ونعتقد بأن ابن المقفع كان يقف بين حضارتين؛ قديمة زائلة؛ وجديدة ناهضة، وقد استطاع أن يوازي بينهما، ويقدم من الأولى للثانية ما يراه فعلاً ارتقائياً بنشاطها الفكري والسياسي والاجتماعي والأدبي...فهو يعيش في صميم دولة إسلامية غلب على تكوينها الجنس العربي والفارسي.

إنه نشأ وفي عقله عنصران، أو لنقل ثقافتان أو حضارتان، وكان يردد النظر فيهما؛ ويقلب بصره فيما يشاهده من حالهما معاً في أواخر عهد بني أمية، ومن ثم في عهد أبي العباس السفاح وأخيه المنصور، اللذين بطشا بأقرب المقربين إليهما ولو كانوا عمومة أو خؤولة... فاعتقد أن صلاح الحاضر يكون بالإفادة من عبر الماضي، دون تشنج فكري أو ديني أو عرقي.

وهكذا ظهر في كل ما أنتجه من مؤلفات وإبداعات، فكان حقاً الأديب المبدع الذي وقف بين حضارتين، لكن الآراء التي جاءت بعده تناهبته، ووصمته بما لم يدر في خلده؛ أو لم يعقد عزمه عليه، وهو الذي نشأ كأمثاله من بني فارس نشأة فارسية، وتأدب بالأدب الفارسي، ثم صاغ باللغة العربية كغيره[16].

ولهذا كله بنيت الدراسة، وسيكون منطلقها من حياة الرجل وصفاته

(16) انظر فجر الإسلام 115 وبعد.

obeikandl.com